النثر في العصر الأسلامي

أ. **الخطابة :**

كان للعرب في عصر ما قبل الاسلام نثر يقال في مواقف معينة ، أقتصرت موضوعاته على الكهانه وسجعها ورموزها التي يقصدها الكهان ليدخل الرهبة في النفوس ، والميدان الآخر هو المناظرات التي كانت تقوم بين القبائل فيفخر كل خطيب بما عنده وعند قبيلته من امجاد ومفاخر .

وذهب الدكتور طه حسين في كتابه (في الأدب الجاهلي) الى أنكار معرفة العرب لهذا الفن بحجة أن النثر وليد العقل والتأمل ، والعرب أنذاك أمة شعر لم يكن للعقل مكان في حياتها وإنما جل اعتمادها على ما يثير انفعالتها وعواطفها هو الشعر .

ويرى الدكتور زكي مبارك ان العرب هي أمة نثر كما هي أمة شعر وأن وجود القرآن الكريم دليل على معرفة العرب لأسلوب النثر.

وسفه رأي طه حسين وقرن دليله هذا بكثرة الخطب في الاسلام وأنه لايمكن ان يوجد هؤلاء الخطباء دون ان تسبقهم خطب قيلت قبل الاسلام .

وأذا كان الشعر وسيلة من وسائل الهداية ، التضليل في الحرب الدائرة بين المسلمين والمشركين ، فكذلك كان النثر له دور في نشر الرسالة السماوية فيبدأ حملة أقناع الناس وهدايتهم الى التوحيد ، ودعوتهم الى سبيل الله ، ويبين لهم الضلال في عبادة الاصنام والاوثان .

فجندت قريش كل قواها مستعملة القوة والعنف تارة والاقناع والمخادعة تارة اخرى.

فأنتدبت خيرة رجالها ليجتمعوا في مواسم البيع والحج فيخطبوا، ويسفهوا دعوة محمد (ص) ولابد ان يكون في كل تجمع تعقده قريش مع نفسها او مع قبيلة اخرى خطيب يخطب فيهم . كان للخطابة دورها في توجيه الناس وأعلان أمور الدين وتنظيم العلاقات الاجتماعية . فقد خطب الرسول الكريم (ص) في أول جمعة في المدينة المنورة وقال :

((أما بعد:أيها الناس ، فقدموا لأنفسكم ، تعلمن والله ليضعفن أحدكم ثم ليدعن غنمه ليس لها راع ، ثم ليقولن له ربه ليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه : ألم يأتك رسولي فبلغك ؟ وآتيتك مالاً وأفضلت عليك فما قدمت لنفسك ؟ فينظرن يميناً وشمالاً فلا يرى شيئاً،ثم لينظرن قدامه فلا يرى غير جهنم)) .

ويلاحظ في هذا الجزء من الخطبة أن الرسول (ص) لم يعمد الى السجع أو الصنعة اللفظية أو الرمز أو الإيهام أنما كان اسلوبه واضحاً يعمد فيه الى تصوير المواقف بطريقة تؤثر في السامعين .

بلغت....اللهم فاشهد .أيها الناس إنما المؤمنون إخوة ولا يحل لامرئ مال لأخيه إلا عن طيب نفس منه – ألا هل بلغت اللهم فاشهد.
فلا ترجعن بعدى كافراً يضرب بعضكم رقاب بعض، فإني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعده: كتاب الله وسنة نبيه، ألا هل بلغت ... الله.فأشهد أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب أكرمكم عند الله اتقاكم، وليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى – ألا هل بلغت....اللهم فاشهد قالوا نعم – قال فليبلغ الشاهد الغائب .)).

هذه الخطبة الشريفة تعد نموذجاً للخطابة العربية في صدر الاسلام فقد أفتتحها الرسول (ص) بحمد الله وطلب غفرانه ، وصارت عبارتها مما يكرره الخطباء في خطبهم ، ويختمون على الطريقة نفسها التي ختم الرسول (ص) خطبته .

ويبدأ موضوع الخطبة بعبارة (أما بعد) التي صارت سنة للخطباء . وموضوع الخطبة هو أجمال لمبادئ الدين يذكر بها ويقرها في نفوس الناس والخطاب موجه لجميع الناس (أيها الناس) يبلغون بدورهم الاخرين (فليبلغ الشاهد الغائب)

وتتالف الخطبة من مقاطع قصيرة ، وجمل صغيرة مؤكدة للمعنى : (بعد عامي هذا ، في موقفي هذا ، كحرمة يومكم هذا ، في شهركم هذا ، في بلدكم هذا) ويختتم كل مقطع بأسلوب الاستفهام (الأ هل بلغت ؟) ويعقبه بعبارة (اللهم فأشهد) ليقر في نفوس السامعين مبادئ الاسلام ويلزمهم بها.

والخطبة في اسلوبها خالية من السجع والجناس أو أي صنعة متكلفة ، وليس في الفاظها غريب أو مستهجن ، فكانت تمثل الاسلوب الرائع للبيان بعد القرآن .

أن الاطلاع على خطبة الرسول (ص) التي سجلتها كتب التاريخ يدلنا على قلة عددها أذا قيست بأحداث زمانه . يقول زكي مبارك : (فهذا رجل غيرَ أمةٍ بكاملها في عشرينَ عاماً ، ولقيت دعوته ألافَ المصاعب، أفيمكن حقاً الاقتناع بأنه لم يقل أكثر من عشر خطب ، وان انصاره لم يقولوا من الخطابة والرسائل ألا ما نقله عنهم الطبري وغيره من المؤرخين) .

ويعلل الدكتور شوقي ضيف ذلك بقوله : (وأكبر الظن أن خطبه أصابها ما أصاب خطب الجاهلين فأنها لم تدون لحينها ، وبعد العهد بين عصرها وعصر تدوينها) ولعل اهم سبب في قلة وصول خطبه (ص) يعود الى انهم ادرجوها مفرقة ضمن كتب الاحاديث النبوية ، أليست خطبه أقوالاً ؟

إذا فمن حقهم إيرادها في كتب الحديث .

وبعد وفاة الرسول (ص) مباشرة كان لخطب الصحابة الكرام شأن في تثبيت النفوس على الأسلام وتهدئتها فقد خيل لبعض المسلمين أن يد المنية لايمكن ان تمتد الى نبيهم الكريم. فقد ذكر ان الخليفة عمر (رض) لم يصدق أول الأمر خبر وفاة الرسول (ص) وظن ان ما يسمعه مجرد اقاويل واراجيز يبثها المنافقون فخطب بالناس قائلاً : (أن رجالاً من المنافقين أن رسول الله (ص) قد توفي ، وأن رسول الله (ص) ما مات ، ولكنه ذهب الى ربه كما ذهب موسى بن عمران (ع) ، فقد غاب عن قومه

أربعين ليلة ثم رجع إليهم بعد أن قيل مات ، والله ليرجعن رسول الله (ص) كما رجع موسى).
وحين بلغ ابا بكر (رض) الخبر ذهب الى بيت السيدة عائشة (رض) ليستجلي الأمر فلما عرف الحقيقة أسرع الى الناس المجتمعين وعمر مايزال يخطب فيهم فقال : (على رسلك ياعمر أنصت ، فأبى ألا أن يتكلم ، فلما رآه ابو بكر لاينصت اقبل على الناس فلما سمع الناس كلامه اقبلوا عليه ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : (أيها الناس ، من كان يعبد محمداً ، فأن محمد قد مات ، ومن كان يعبد الله فأن الله حي لايموت) ، والله قد نعاه الى نفسه في أيام حياته وقال : (أنك ميت وأنهم ميتون) ثم قال : (وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات او قتل انقلبتم على اعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه ، فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين).
والخطابة على قصرها تظهر قوة اسلوبها في أقناع الناس، واعتمادها على القرآن الكريم فكراً واقتباساً للتأثير في نفوس الذين ذهلوا لموت الرسول (ص) وعز عليهم ان يفارقوه وكأنهم نسوا الآية الكريمة التي تنص على أن الرسول (ص) مثل بقية البشر يحيا ويموت ، وقال عمربن الخطاب حين سمعها :(ماهو ألا ان سمعت أبا بكر قالها فعقرت الى الأرض ما تحملني رجلاي ، وعرفت أن رسول الله (ص) قد مات) .
أن الأحداث والظروف التي تلت وفاة الرسول (ص) كان من شأنها أن تطور الخطابة وتسير بها شأواً بعيداً عن مجال الدعوة الى التعبير عن كل مايجد في حياة الأمة من أحداث وفتن وحروب فكانت حصيلة ذلك خطب كثيرة في صدر الاسلام والعصر الأموي تمثل جانباً من النشاط الفكري والسياسي والاجتماعي عند العرب المسلمين . ولتيسير دراسة نشاط الخطابة في مجالات الحياة المختلفة ارتأينا تقسيمها على ما يأتي :

١. خطب البيعة والخلافة والولاية.
٢. خطب الأحداث.
٣. خطب الثورات السياسية.
٤. خطب الوفود والرسل والمفاوضات .
٥. خطب الوعظ أو الخطب الرسمية .

١. خطب البيعة والخلافة والولاية:

ذكرت المصادر أن المسلمين أجتمعوا بعد وفاة الرسول (ص) في سقيفة بني ساعدة ، ووقف كل خطيب يخطب لترشيح صاحبها للخلافة ، فيقنع الحاضرين بأهليته معتمداً على حجج منها السبق في الاسلام ، ورضا الله ورسوله عنه ، فأنتهى الأمر بخلافة ابو بكر الصديق (رض) فخطب في الناس بعد أن حمد الله وشكره فقال : (أيها الناس أني قد وليت عليكم ، ولست بخيركم فأن رأيتموني على حق فأعينوني

وأن رأيتموني على باطل فردوني ، أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإذا عصيته فلا طاعة لي عليكم ، ألا ان اقواكم لدي الضعيف حتى آخذ الحق له ، وأضعفكم عندي القوي حتى آخذ الحق منه، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم).

ويلاحظ على هذه الخطبة قصرها وبلاغتها ، وتواصلها مع الروح الاسلامية وعبارتها القصيرة تعبر عن المعنى الذي أراده. وهذه الخطبة أصبحت فيما بعد من مراسيم الخلافة أذ يخطب كل خليفة بعد الإعلان عن بيعته فيعلن عن منهجه في معاملة الرعية ، فالخليفة عمر بن الخطاب (رض) بعد توليه الخلافة يدعوا الله أن يهديه ويوفقه الى الحكم العادل وأتباع منهج القرآن والسنة النبوية الشريفة . وأختلفت خطبة علي بن أبي طالب (ع) نظراً للأحداث التي هزت المجتمع الاسلامي وهو قتل الخليفة عثمان (رض) ، فيبدأ خطبته بتقريع الناس لانغمارهم في الفتنة فقال :(أن الله قد داوى هذه الأمة بدوائين بن السيف والسوط فلا هوادة عند الأمام فيها ، أستتروا في بيوتكم ، وأصلحوا فيما بينكم ، والتوبة من ورائكم ...) .

وتضاف الى خطبة البيعة خطبة الولاية ، فترى الوالي يجمع الناس عند توليه الأمر فاتسمت خطب الولاية بسمة خاصة وهي لجوؤها الى الصراحة وتهديد الناس أن لم يطيعوه ، ولما عزل الخليفة عثمان (رض) أحد ولاة الكوفة بعد إرجاف الناس واتهامه بشرب الخمر ، فولى سعيد بن العاص فخطب في الناس سنة ٣١ هـ فقال : (والله لقد بعثت اليكم وأني لكاره ، ولكني لم أجد بدأ أذا أمرت أن ائتمر . ألا أن الفتنة قد أضلعت خطمها وعينها ، والله لأضربن وجهها حتى اقمعها ، أن تعينونني وأني لرائد نفسي اليوم ، ثم نزل) .

٢. **خطب الحوادث** :

أن أهم الحوادث التي هزت الدولة الاسلامية بعد وفاة الرسول (ص) أحداث الردة وفتنة المرتدين . وكانت طبيعة هذه الأحداث تقتضي قيام الخطباء من المسلمين يحثون الناس على الجهاد في سبيل الله ، محاولين أقناعهم بصحة موقفهم ، ولم يصل من هذه الخطب ألا القليل ، من ذلك بقي من خطبة مثل مشهور تناقلته العرب وهو: (ويل للشجي من الخلي). فيتذكرون سببه وينسبونه الى صاحبه ، وذلك ان بني تميم حين اردت عن الاسلام حاول أحد حكمائها وهو أكثم بن صيفي أن ينصح قومه بأن يعودوا الى الاسلام لأن فيه صلاحهم فخطب فيهم خطبة طويلة فقال مالك بن نويرة : (قد خرف شيخكم). فقال أكثم : (ويل للشجي من الخلي). ويذكر الطبري في حوادث الردة وكان من قبل عامل النبي (ص) على صدقات قومه ففرق هذه الصدقات عليهم ، ثم شك في حسن عاقبة موقفه فحاول أن يتراجع عن العصيان وأن يبين لهم بأن لا طاقة لهم بحرب المسلمين وجيوشهم فقال :

(يابني يربوع انا قد عصينا آمراءنا أذ دعونا الى هذا الدين ، وبطأنا الناس عنه فلم نفلح ولم ننجح ، وأني قد نظرت في هذا الأمر فوجدت الأمر يتأتى لهم بغير سياسة ، وأذا الأمر يسوسه للناس واياكم ومناواة قوم صنع لهم فتفرقوا الى دياركم ، وأدخلوا في هذا الأمر ، فتفرقوا) .

أما خطب المسلمين أو قادتهم فتقوم على تشجيع المسلمين وتذكيرهم بثواب الجنة وأن معظم هذه الخطب قد ضاع لكثرة القتلى في صفوف المسلمين أو لتشابه موضوعاتها . وكانت خطب الخلفاء الراشدين مواكبة لرايات الجهاد.

فخطبَ الامام علي بن أبي طالب (ع) في جيشه فقال :

(أن الله تعالى ذكره قد دلكم على تجارة تنجيكم من العذاب وتشفي بكم على الخير إيمان بالله ورسوله وجهاد في سبيله وجعل ثوابه مغفرة الذنوب ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر وأخبركم بالذي يحب فقال : إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص) .

وكان للمرأة خطب شكلت ظاهرة أدبية لانها تظهر للناس وتخطب فيهم وتحاول أقناعهم بأسلوب أدبي راق ومن ذلك خطبة (أم الخير) بنت الحريش بن سراقة البارقية خطبت حين قتل عمار بن ياسر فانفعلت فقالت :

(يا أيّها الناس اتّقوا ربكم ، إنّ زلزلة الساعة شيء عظيم ، إنّ الله قد أوضح الحقّ وأبان الدليل ، ونوّر السبيل ، ورفع العلم . فلم يدعكم في عمياء مبهمة ، ولا سوداء مدلهمّة ، فإلى أين تريدون رحمكم الله ، أفراراً عن أميرالمؤمنين ، أم فراراً من الزحف ، أم رغبةً عن الاسلام ، أم ارتداداً عن الحقّ ؟ أما سمعتم الله عزّ وجل يقول) : (ولنبلونّكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوَ أخباركم) . وهكذا رفعتِ هذه المرأة من معنويات المقاتلين وأذكت فيهم روح الجهاد .

٣. **خطب الثورات السياسية** :

تعد خطب الخوارج صورة صادقة لدعوتهم وتعصبهم لما يدعون اليه ، فقد بدأت هذه الحركة منذ خروجهم على سيدنا علي بن ابي طالب (ع) لقبوله التحكيم بين جيشه وجيش معاوية ، وقيل أجتمعوا في منزل رئيس لهم وهو شريح بن أوفى العبسي فقام خطيباً فقال : (أن الله أخذ عهودنا ومواثيقنا على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والقول بالحق ، والجهاد في سبيل تقويم السبيل) . وقد قال عز وجل لنبيه عليه الصلاة والسلام :

(يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ) . فأشهدوا على أهل دعوتنا لقد أتبعوا الهوى ، ونبذوا حكم القرآن ، وجاروا في الحكم والعمل ، وأن جهادهم على المؤمنين فرض) .

وهكذا أعلن الخوارج بدء الحرب على خلفاء الدولة الاسلامية ، وأخذ زعماؤهم يكون روح الحرب والقتال في نفوس اتباعهم ، ويقنعونهم بخطبهم موقفهم ، متخذين من القرآن وسيلة بيانية رائعة ، ومن أبرز خطبائهم أبو حمزة الشاري ، وقطري بن الفجاءة ، وصالح بن سرح ، ونافع بن الازرق وغيرهم .

وتسجل كتب التاريخ خطباً أخرى تمثل الاحداث السياسية في العصر الأموي ابتداء بثورة الأمام الحسين (ع) ثم ثورات الخوارج والزبيريين بحيث نستطيع أن نستجلي منها الاتجاهات السياسية الممزوجة غالباً بروح الاسلام عند جميع الفرق الاسلامية

فمن ذلك أيضاً خطب الزبيريين ، فقد عبرت عن مواقفهم أيضاً ونختار منها خطبة مصعب بن الزبير حين ولاه أخوه على البصرة ، وأراد الحديث عن بني أمية وظلمهم للرعية فقال : (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، تلك آيات الكتاب المبين ، نتلوا عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون ، أن فرعون علا في الارض وجعل اهلها شيعا يستضعف طائفة يذبح أبنائهم ويستحي نسائهم أنه كان من المفسدين) وأشار بيده الى أهل الشام ثم أكمل الاية (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين) وأشار الى الحجاز ويريد أخاه عبد الله بن الزبير الذي أعلن نفسه خليفة ، وأكمل الآية (ونمكن لهم في الارض ونري فرعون وهامان وجنودهما فهم ما كانوا يحذرون) وأشار بيده الى أهل العراق.

٤. **خطب الوفود** :

مر بنا في وفود القبائل وخطابهم على رسول الله (ص) ومن هذه القبائل بنو تميم . وحين سمعت الرسول وشاعره أعلن اسلامها، وذكرت الروايات وفود بعض القبائل على الخليفة عمر (رض) لبيان حالهم وطلب العطاء من بيت مال المسلمين ، وهكذا دارت خطبهم لبيان حالهم . ومثل هذه المطالب وردت على لسان خطباء القبائل الوافدة على معاوية بن ابي سفيان وغيره من خلفاء بني أمية ، ومن هذه الخطب أيضاً خطب الوفود المتفاوضة في أثناء الفتوحات الاسلامية مثل خطبة (ربعي بن عامر) أمام رستم قائد الفرس حين سأله عن سبب مجيئهم ، فذكر في خطبته أن الله أرسل رسوله رحمة للخلق يهديهم سواء السبيل ، وأنهم قدموا لنشر هذا الدين (فمن قبل منا ذلك منه ، ورجعنا عنه) ولما سأله رستم وما موعد الله ؟ فقال : (الجنة لمن مات على قتال من أبي والظفر لمن بقا) .

ومن المعلوم أن هذه الخطبة كان يترجمها أحد المترجمين الى الفارسية ليضمها رستم الى خطب عبادة بن الصميت حين بعثه عمر بن العاص الى المقوقس خطبة أدخلت الرعب في قلوب السامعين لانه كما قيل – أسود قصير ، وكان المقوقس قد طلب من أصحابه أن يخرجوا ، فقالوا أنه خطيبنا ، فلما قام عبادة قال : (وأن فيمن خلفت من أصحابي الفي رجل أسود ، لكنهم أشد سواداً مني ، وافظع منظراً ، ولو رأيتهم لكنت أهيب منهم لي ، وأنا قد وليت .... ومع ذلك بحد الله من أهاب مائة رجل من عدوي ولو استقبلوني جميعاً ، وكذلك أصحابي .....)

وأدت الخطابة دورها الكبير في مهمات الوفود افراداً وجماعات حين ينوب فرد ليخطب عند الخليفة أو الوالي مبدأياً وجهة نظر جماعته وأبتدعت عادة في العصر الأموي بعد وفاة معاوية وذلك بأن تقدم الوفود على الخليفة الابن فتعزيه لوفاة أبيه وتهنئه بالخلافة ، وقيل بأن الوفود أجتمعت على باب يزيد بعد وفاة أبيه معاوية ولم يقدروا أن يجمعوا بين التعزية والتهنئة حتى أتى عبد الله بن همام السلولي فدخل عليه وقال :((يا أمير المؤمنين آجرك الله على الرزية وبارك في العطية ، وأعانك على الرزية فلقد رزئت عظيماً ، وأعطيت جسيماً) فأشكر الله على ما أعطيت ، وأصبر